انحطاط الشرق

الادبي والعقلي

لحضرة الفاضل الدكتور شبلي شميل

الشرق لفظة تعم بلادًا وسعة واقطارًا شاسعة مختلفة الاطوار والعروض والطر والبرد والخصب والجدب تضم فيها اممًا وشعوبًا وقبائل متباينة الاصل والفصل مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي تراخي النظام وفساد الاحكام وانحطاط المدارك العقلية وفساد المبادىء الادبية لاعلم يقيهم ولاعمل يحميهم فهم بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء يعدون لاسيادهم اهل الغرب واسيادهم بهم يعيشون فيتقادون اليهم صاغرين الى يوم فيه يحقون لان ناموس التنازع في الطبيعة صارم لا يرحم فالضعيف مقضي عليه امام القوي بالمحاق او الشياع بالامتزاق . فجدير بكتّاب الشرق ان يرثوه فهو ميت سيء في صورة حي فليشفقوا عليه وان كان الاشفاق لا يرضاهُ اهل الاستحقاق لان فيه من اعتقاد الملكنة بالمشفق عليه ما تأباهُ النفوس الكبيرة فمقاومة عدو لي يعترف بفضلي احب اليَّ من اشفاق يأتيني من اهلي

فيا وطني ما خانني فيك خائن ... من الحب اواني رضيت به ندًّا
اريدك سيفي عن ولكني ارى ... على غير ما ارضى ارى العز قد ندًّا
فان جرت في حكمي فما ان جائر ... وما انا الاَّ باحث لم يجد بُدًّا

وقد جرى عالم الاخلاق اليوم مجرى اكثر الطبيعيين القائلين بالنشوء فعدوا الانسان الادبي والعقلي كالانسان الطبيعي ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضًا فاعتبروهُ قابلاً للارتقاء والانحطاط في آدابهِ وفي قواهُ العقلية بحسب العوامل المختلفة التي تؤثر فيهِ من طبيعية وادبية . والفطرة ليست بالحصر الاَّ استعدادًا مكتسبًا في الاصل من طبيعة المكان

والشرقي كما نريد بهِ هنا يدخل تحتهُ الصيني والهندي والافريقي والعربي والتركي والعجمي ايضًا وان اختلفت مواقع البلاد التي يقطنها بعض اللاحقين بهذه الاجناس مما يجعلهم في مركزهم الجغرافي واشتقاقهم الانتروبولوجي اقرب الى اهل الغرب منهم الى اهل الشرق الاَّ انهم تجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران . ويطول بنا الشرح جدًّا لو اردنا استيفاء وصف كل من هذه الاجناس بحسب طبيعة البلاد وشرائعه وتعاليمهِ لانهُ وان كان الجامع اليوم بين هذه الاجناس واحدًا وهو التقهقر الادبي والعقلي الاَّ انهم يختلفون فيما بينهم

كثيراً في ذلك ويختلفون كذلك في الاصل وقابليات العقل بحسب طبيعة البلاد ويختلفون ايضاً في مركزهم الاجتماعي بحسب شرائعهم وتعاليمهم

ولا شك ان طبيعة البلاد اثرها في الانسان شديد كما ذهب الى ذلك ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والبلدان حيث قال في الفرق بين اهل اسيا واوربا ما خلاصته :

" ان اهل اسيا تغلب عليهم الكينة ورقة الطباع لما هم فيه من رغد العيش بسبب خصب بلادهم واعتدال فصولهم ولذلك لم يكن لهم شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة ولا الثبات في الاعمال ولا علو الهمة وطبعاً كان اصلهم اوعر وغريباً ويغلب فيهم حب اللذات على كل شيء بخلاف اهل اوربا الذين هم معهم على طرفي نقيض من هذا القبيل لصعوبة اقليمهم وقلة خصب بلادهم "

ولكن الاقتصار على هذا الاثر لا يكفي في مثل بحثنا فان الانسان وان يكن ابن المكان فهو ابن التربية والتعليم ايضاً وقد فطن الى شيء من ذلك ابقراط نفسه حيث قابل بين حكومات اوربا وحكومات اسيا فقال ان اهل اوربا اشد نجدة للحروب من اهل اسيا بسبب طبيعة بلادهم وبسبب نوع احكامهم ايضاً فان اهل اوربا تحكمهم شرائعهم واما اهل اسيا فتحكمهم ملوك وشتان بين النجدة التي يقوم بها من يدافع عن نفسه والنجدة التي يظهرها من يدافع عن غيره

ولا ريب ان اثر العوامل الادبية في الانسان شديد جداً وربما كان اشد اليوم من اثر العوامل الطبيعية حتى ذهب الباحثون في طبائع الحيوان الى ان الانسان لم يتغير في بدنه كثيراً من يوم اتخذ الكساء واصطنع السلاح وبنى البيوت يريدون ان يثبتوا بذلك ان الانسان قادر على مقاومة الطبيعة بالصناعة . واهم هذه العوامل العلم قال لتري معقباً على ابقراط ما نصه " ان ابقراط يقول ان طبيعة الاقليم والشرائع هي التي تجعل اهل اوربا اشد نجدة للحروب من اهل اسيا ومعلوم انا رأينا على تراخي الايام ان الفرس الذين غلبهم اليونان لم يقدر عليهم الرومان بعد ذلك وان اليونان ضعفوا جداً في عهد سقوط سلطتهم وذبول شوكتهم وان العرب اتاهم يوم كان لم فيه نصر في الحروب مبين وشرف يقطع السماك بروقيه وعز يقتقل الجبال. فمثل هذه الامثلة تكفي لان تبين ان النجدة للحروب لا تختص باقليم دون آخر وكذلك يقال عن الاحكام فان النجدة لا تتوقف عليها كما انها لا تتوقف على الاقليم بل على النظام وعلم الحرب فان نفراً قليلين منظمين من الاسوجيين ظهروا على الروس الكثيرين غير المنظمين في موقعة بلتاوى والانكليز جندوا من الهنود جنوداً شديدة البأس في سنين قليلة. وقد كان المصريين على عهد محمد علي جنود باسلة. فالاقليم والحكومات اثرها في نجدة الحرب

قليلي والتقاء والعلم هما اللذان يفعلان كل شيء. وهذا القول مع ما فيه من الانحياز الى جانب دون آخر صحيح باعتبار ان العلم من اقوى الوسائط المؤثرة في الانسان والمغيرة له. ولنا مثال حديث في اليابان اليوم وما اظهرته من النهضة الاجتماعية والحربية في سنين قليلة حتى ظهرت على الصين التي تزيدها نحو عشرين ضعفاً في عدد السكان بفضل العلم

فطبيعة بلاد الشرق بما توجب من الراحة للبدن تتسع للعقل مجال الخيال وطبيعة بلاد الغرب بما توجب من المشقة على البدن تربي فيه النهضة والاقدام ولذلك كان اهل الشرق كما قال الشهرستاني ميالين البحث عن ماهيات الاشياء وحقائقها واهل الغرب ميالين البحث عن طبائع الاشياء وكيفياتها اي ان هؤلاء اهل عمل واولئك اهل نظر قد يجر الى الكسل وربما كان هذا من الاسباب الطبيعية التي لاجلها لا يستطيع الشرق ان يناظر الغرب اذا تساوت عندهما المعدات الادبية. على ان الشرق اليوم — ونحصر كلامنا في الاقوام الذين تجمعنا واياهم جامعة الوطن والسياسة — متقهقر جداً عن الغرب في هذه المعدات لقلة العلم فيه وثقل وطأة الوهم عليه ولا يخفى ما لذلك من الاثر السيء على العقل والآداب ولذلك كانت قوى العقل في الشرق اليوم ضعيفة والآداب متراخية. ونعني بالآداب هنا لا كما يفهمها البعض تلك الآداب الذاتية التي لا تجاوز النفس ولا ينظر فيها الى الكل كالصوم والصلاة مع تربية الضغائن والاحقاد ضد من لا يصلي صلاتك ولا يصوم صومك ولا تلك الآداب السطحية المنقولة الينا من سفاسف آداب الغرب كالهشاشة والبشاشة والمفاخرة بالملابس والطعام وايلام الولائم والتأنق في الحركات وسائر انواع المجاملة التي لا تجاوز حد اللفظ مع التوراة المقصد منها عادة التمكن بالظواهر والاعراض وغفلنا الجواهر والاغراض بل نريد بها تلك الآداب الرفيعة الاجتماعية التي تدل على ارتفاع المدارك والتي ينطبق عليها قول المثل عدو عاقل خير من صديق جاهل كالحزم والعزم والشهامة وكرم الاخلاق الحقيقي والصدق والاخلاص ومحبة الناس من وراء محبة الغير ومحبة الوطن فوق كل شيء مما يبعث الى التعاون والتعاضد للقيام بالاعمال الجليلة العمومية التي يقوى بها الفرد لانه ينظر فيها الى قوة الكل ومعرفة اقدار ذوي الفضل منا للانتفاع بما خصوا به من المواهب لتنشيط هذه المزايا في الجمهور لا قتلها فيهم لقتلها فيهم حسداً ولؤماً والاغضاء عن الهفوات في جنب الحسنات لا تحقير هذه وتعظيم تلك تشفياً من الاجتهاد والتقاماً من الذكاء. فان الفرق بين الغرب والشرق في ذلك كالفرق بين اعمال الرجال واعمال الاطفال

ذكروا ان لامارتين الشاعر الفرنسوي الشهير بلغت ديونه نحو ثلاثة ملايين فرنك فقامت

الامة واوتتها عنه بجمع المال بالاكتتاب ولم يمنعهُ ذلك من تجديدها ولا منع تلك الامة من تجديد الاكتتاب لاحيائها. فكيف لا يقوم بين امة هذا اعتناؤها برجالها رجال كلا مرتين واعظم منهُ بطبقات. وانظر سكوت الشاعر الانكليزي خسر اموالاً طائلة في التجارة وانكسر عليهِ نحو خمسين الف جنيه فعمد الى التأليف واوفاها من كتاباتهِ لانهُ كتب لقوم يقرأون ويدفعون ثمن ما يقرأونهُ. بل لنعتبر بمثل بطل السودان وما صادفهُ من العناية البالغة الغاية القصوى من امتهِ وحكومتهِ مما لا يزال صداهُ يرن في الآذان ولنقابلهُ بمعاملة حكومات الشرق وامم لابطالهِ اذا ظهر فيهِ ابطال فاقل عقاب لهم على اجتهادهم وامتيازهم الاقصاء الى الاقطار الشاسعة او الوضع تحت القفل والمفتاح حيث يطمس ذكرهم ويتناسى فخرهم. فكيف لا يقوم من اولئك رجال يبذلون قواهم ودمهم لخدمة وطنهم وامتهم وكيف لا تنمو فيهم مواهب الذكاء والاقدام على جليل الاعمال وكيف لا ينزوي هؤلاء في بيوتهم متقاعدين عن خدمة وطنهم بل كيف لا تموت فيهم هم الرجال

والغريب ان انحطاط الآداب في شرقنا بلغ مبلغاً لا يعهد لهُ نظير في سوانا فترى الصعلوك منا يظهر بمظهر الامارة على امير قومهِ والامير منا يتضاءل في الحقارة والدناءة لدى صعلوك اجنبي. فالواحد منا جبار على ابن جنسهِ ولو فاضلاً وذليل لدى الغريب ولو انهُ اذل من بيضة البلد. فمتى بلغت الامة هذا المبلغ من الدناءة فاي خير ترجو منها. واي نهضة علمية او ادبية او اجتماعية ترجو من مثل هؤلاء الاقوام

ولا شك ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك فاماتت حكومات الشرق من امم عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت بهِ على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليهِ الاستبداد وقوّمت فيهم كل الصفات الهادمة لصروح الاجتماع بما اخمدت من قوى العقل باطفائها نور العلم واثرهُ ذلك فيهم لتقادم عهدهِ شديد وزوالهُ منهم بعيد فلا عجب بعد ذلك اذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديهِ طامحاً ببصرهِ اليهِ مزمعاً ان يقبض عليهِ سنة الله في خلقهِ ولن ترى لسنة الله تبديلاً

[المقتطف] نشرت هذه المقالة ايضاً في جريدة البصير الغراء مع مقالات جمة لحضرة الدكتور شميل دعاهُ الى كتابتها ما يراهُ في بلدان المشرق من الخمول والتأخر ادبياً ومادياً. وقد اصاب في نسبة هذا التأخر الى حكومات الشرق وانحطاط الآداب فيهِ. وعندنا ان في الصور التي اتخذتها اديان الشرق ما يتضح بهِ سبب انحطاطهِ كما ابنا غير مرة